مرآة الثورة

مرآة الثورة كشفت لنا إذن عن جانب جديد من الثورة، وهو أن الثورة عبارة عن تيار من الوعى يسرى بين عقول مجموعة من الناس، لا يقبل النظام القائم فى حينه بحيث تكون الأوضاع هى الوجبة المقدمة للناس، ويبدأ الناس يعبرون عن هذا التيار من الوعى بالأوجاع فى جلساتهم الخاصة ثم رويدا رويدا يصبح ضميرا جمعيا مكبوتا.

فصل الخطاب من القول:

خلاصة القول إذن أن مرآة الثورة قد أبرزت مشاهد كثيرة غفل عنها الناس، ركزنا عليها هنا فى هذا الكتاب، لكن ليس معنى ذلك أنه لم تظهر مشاهد أخرى، فربما يقول القارئ: هناك مشاهد لم يوردها الكتاب بين صفحاته؟! أقول لصاحب الرأى هذا إن المشاهد التى تشغل أذهان وعقول الناس مثل إيجاد نظام ديمقراطى حقيقى وأحزاب قوية ومراكز بحثية تضع صالح الوطن والمواطن مقدما على كل حساباتها، أو مراكز حقوقية أو منظمات مجتمع مدنى لا تضع فى اعتباراتها فقط الجهات المانحة، كل هذه المشاهد مجرد عرض لمرض، فإذا استقامت المشاهد الأساسية التى أوردناها فى الكتاب هذا انتفت الأعراض هذه

تماما، فالمشاهد التى جاء الكتاب بها بهذا الشكل جعلت المواطن العادى يرى الآتى:

أولا: توحش سلطة المؤسسات على سلطة الدولة، ويكون الترهل واضحا فى جسد الدولة (الدولة كنظام).

ثانيا: فقدان العمل المؤسسى الحقيقى، فالدولة (كنظام) فى حقيقتها هى سلطة عليا لاتخاذ القرار بحسب رؤيتها ومتابعته، والمؤسسات عليها العمل الدؤوب فى تناغم يخص المواطن وحاجاته ورغباته فى إطار الدستور والقانون.

ثالثا: لا قيمة ولا تنمية فى جامعاتنا، ومراكز أبحاثنا بدلا من أن يكون البحث العلمى يقود قاطرة التقدم والتنمية لبلادنا ومجتمعاتنا مستخدما كل ثروات البلاد الطبيعية والبشرية ترى التدنى أو التلاشى للبحث العلمى فى بلادنا!!

نقطة نظام:

تتعرض نقطة النظام هذه لعدة أوجه:

أولا: كلمة الديمقراطية لم يصبح لها البريق الخاطف اللامع الذى كان، ذلك لأنها أصبحت غاية فى ذاتها رغم كونها وسيلة لا غاية، هى

وسيلة إن تحققت لغاية أسمى منها، والغاية منها هى إسعاد الشعوب، فإن لم تتحقق سعادة الشعوب نتيجة لتحقق الديمقراطية فهى ليست كذلك، يجب أن نضعها تحت أى مسمى آخر، والمسميات كثيرة كأن يقال الديمقراطية فى إطار العولمة، والديمقراطية فى خدمة الأيديولوجيا أو الديمقراطية المنتقاة لشعوب بعينها، كتجارب ديمقراطية طبقت فى بلدان وكأنها حقل للتجارب، كيف إذن نتحدث عن ديمقراطية فى شعوب يعترف صناع القرار فيها أنها غير جاهزة لها؟! وأن الديمقراطية غير لازمة لاحتياجها الشديد لمقدرات حياتها الأساسية، فالفقر والفاقة يضربان فى جذور مناطق كثيرة منها، والأمية الأبجدية علامة مميزة لها، كيف نتحدث عن ديمقراطية فى بلاد فيها إفراط فى استخدام السلطة، بل وعدم تداولها سلميا عبر أجيال كثيرة تجاوزت العمر الطويل المديد، ولم تر من حق شعوبها التداول السلمى للسلطة، حتى وقر فى بنيانها الثقافى والمعرفى أن الأمر يبدو هكذا، بل إنه من الأفضل أن يكون هكذا، إذ إن البدائل معناها الفوضى وعدم الأمان، الديمقراطية إذن لا تفرض أو تقوم بالتشريعات فحسب، أى لابد أن

تعيش الديمقراطية وتنمو فى مناخ من الثقة يشمل المجتمع بأسره.

ثانيا: المتابع لكل النظريات السياسية والاقتصادية يعرف جيدا أن القرن العشرين قد انقضى وانصرم، ولم يستطع أن ينجب نظرية سياسية أو اقتصادية جديدة؛ فالاشتراكية والرأسمالية هما من ميراث القرون السابقة على القرن العشرين، وما زالت بلادنا تلهث وراء كلا النظريتين، وإن أرادت التطور ذهبت إلى العولمة التى هى وهم .

وقد فشلت فى بلادنا هذه النظريات؛ إذ كيف يتحدث الناس عن اشتراكية بدون مشاركة شعبية؟! والعكس كذلك فنحن نتحدث عن رأسمالية فى فقر وعوز عام لجماهير مكلومة.

ثالثا: معظم مثقفينا ومفكرينا مازالوا يحدثون الناس عن العالم ذى القطبين ثم العالم ذى القطب الواحدن رغم أننا نلحظ فى مرآة الثورة كتلات وكيانات قد تلاشت، وبلدان قد زالت وقسمت، منها العظمى ومنها الصغرى، فلم يعد الحديث إذن إلا عن قدراتنا نحن، ما هى وكيف السبيل لاستثمارها؟ . دون ذلك

يصبح الحديث مجرد هراء وليس له قيمة.

رابعا: أنه لا يوجد بلد ما يتحمل الكر والفر بين صانع القرار والجماهير، كما أنها لا تتحمل أن تكون فى معمل تجارب دائم، فقد رأينا بلادا ليس لها قدرات وثروات طبيعية لكنها فجرت طاقات شعوبها؛ فأقامت حضارة فى وقت قياسى، وأقامت الشراكة والندية مع قوى عظمى اعتبرناها نحن مستحيلا .

ومن هذا المنطلق نستطيع القول على سبيل المثال لا الحصر:

١. إن تجربة محمد على فى بناء مصر الحديثة لم تؤت ثمارها، وربما يقول البعض إنها فشلت لأنها نسيت أن بناء الإنسان لابد أن يواكب بناء المؤسسات.

٢. وكذلك تجربة ابنه إسماعيل فشلت كذلك؛ لأنها نسيت أن الاستدانة لا تقيم حضارة، لكن استخدام ثروات البلاد وقدرات شعوبها كفيلة بإقامة حضارة تستمر ولا تحتل.

٣. حتى التجربة الناصرية نسيت أن إيقاظ الهمم لابد أن يتبعه بالضرورة تفجير الطاقات وإطلاق

الحريات، من هذا يتضح لنا أن معادلة الوفاق الوطني واللحمة الوطنية لابد أن تأتي على أرضية ثابتة راسخة، ويكون من لوازمها مناخ ثقة معه توزيع عادل للثروة بجانب إطلاق الحريات العامة وحرية الإبداع دون ذلك لا تحدث الناس عن تجربة جديدة.

خامسا : ليس من اللائق الحديث عن تحولات في بنية المجتمعات العربية التي حدثت فيها ما يسمى بثورات الربيع العربي وحدها دون غيرها من باقي المجتمعات العربية الأخرى؛ فالتحولات في بنية المجتمعات العربية قاطبة قد حدثت منذ بداية عقد الثمانينات من القرن العشرين تباعا مع بداية مسلسل الحروب الإقليمية التي أقيمت داخل جسد المنطقة عمدا مع سبق الإصرار والتخطيط الجيد لها من خارج المنطقة العربية ومن داخلها.

الحرب العراقية الإيرانية استمرت سنوات طويلة تم استنزاف جزء من ثروات بلادنا المادية والبشرية، ثم استكمال هذا الاستنزاف في غزو الكويت، وما أعقبه من حرب تحرير الكويت والمسماة عاصفة الصحراء الأولى والثانية.

كانت هذه الأحداث الكبرى مقدمات وإرهاصات لما سمى بثورات الربيع العربى، والتى كان من نتيجتها حدوث تحولات فى بنية المجتمعات العربية للأسوأ، وعلماء الاجتماع يستطيعون رصد هذه التحولات غن أرادوا ذلك، رغم أن المجتمعات لم يعد لديها أذان تسمع أو تقرأ أو تتعلم من مرير تجاربها.

سادساً: أكذوبة الإعلام المستقل.

كلمة إعلام مستقل، هل تعنى أنه مستقل بمعنى أنه لا يتبع مؤسسات إعلام حكومية من إعلام مرئى ومسموع ومقروء؟ أم أنه مستقل بمعنى أنه يطرح رؤى وتحليلات مستقلة عن وجهات النظر الرسمية للنظام القائم؟ أنا لا أدرى ما المقصود بكلمة مستقل، إذن هى كلمة فيها لبس وغموض عندى وعند غيرى، هذا ما ظهر فى مرآة الثورة.

ويستطيع الضمير الجمعى غير المكتوب أن يصف الإعلام المستقل هذا بالأكذوبة، والدليل ما ظهر فى مرآة الثورة من هزائم وانتكاسات إعلامية قد ظهرت، ووضحت جليا، فكم من شخصيات أعطاها الإعلام المستقل القامة والقيمة والوقت وبريق الأضواء أمام

الكاميرات والشاشات، ثم يتبين أنهم ليسوا على قدر المسئولية الملقاة على عاتقهم، كما أنه ليس لديه، كما يقول أصحابه بأنفسهم، ميثاق شرف إعلامى ولا معايير ومقاييس مهنية، فإذا كان الإعلام الرسمى موجها فإن المستقل هو كذلك موجه أيضا، والجماهير لا ترى نفسها فى كلا الاتجاهين سواء الرسمى أو المستقل.